

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

---

١) رابط الحلقة
http://www.altarefe.com/cnt/tvp/1053

أهمية العلم ومنزلته

منزلة العلم هي منزلة كل خيرٍ في الدنيا ، وذلك أن الإنسان لا يمكن أن يحقق خير إلا بالعلم والإ كان تحقيقه من باب الصدف ، فالعلم هو باب لكل خير سواء كان العلم المادي أم العلم الشرعي، فهو باب لكل خير يتحقق للأمة والإنسان في عاجل أمره وفي الآخرة وأما ما يثاب عليه الإنسان فهو العمل الذي سبقه علم وأما العمل الذي لا يسبقه علم إما أن يكون فعله بلا علم كالمحاكاة والتقليد فهذا يضعف حقيقة العمل وربما يرده بالكلية .

ولهذا عظمت منزلة العلم ويكفي في فضل العلم وعلو منزلته أن الله سبحانه وتعالى قد جعل شئيًا من علمه في الناس وجعل العلم منحة ومنةً منه سبحانه ولهذا يقول تعالى ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(الإسراء : ٨٥) فهذا نعمة ومنة من الله امتن بها عليه وكأنه يريد الاستزادة ، فلم يأمر الله نبيه أن يسأله زيادة من أمر الدنيا أو الأخرة وما طلب سبحانه من عباده الاستزادة إلا في العلم لقوله ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه : ١١٤) فالاستزادة من الخير وطلبه هو باب يوصل الإنسان للحق ، ولهذا قال رسول الله ﷺ(مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)[٢] بل ربط به الخيرية كما جاء في الحديث عنه ﷺ (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)[٣] والتفقه في الدين معيار للخيرية فكلما كان الإنسان فقيه فإن الله أراد به خيرا ، ودلالة هذا الحديث أي أن من لم يرد الله به خير لا يوفقه للعلم ولا للمعرفة ولا يفقه في الدين لهذا يسر الله العلم لعباده وجعله بابًا من أبواب

٢) رواه مسلم : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٩) ، والترمذي : العلم (٢٦٤٦) ، وابن ماجه : المقدمة (٢٢٥) ، وأحمد (٢/٢٥٢) ، والدارمي : المقدمة (٣٤٤).
٣) رواه أحمد في المسند (٢٧٩٠) .

الخير فوجب على الناس سلوك طريق العلم لتحقيق الخيرية ، وترى حتى في أبواب الدنيا لا تتحقق الخيرية إلا بالعلم .

وما عدا ذلك فيكون فيهم البغضاء والشر والفتن والشحناء وكل هذا ، فلا تنتشر هذه الأمور في الناس إلا بالجهل وأما نور العلم فتوفيق وهداية وسداد وإعانة وهذا من حكمة الله في الناس سواء في العلم المادي أو الغيبي ، وقد يكون ثمة امتزاج بين العلم المادي والتعبدي فيكون في جملة من الأحكام فكان من هذا بحث النظر العقلي وإن دل الدليل عليه وإن كان الأصل أن العقل عند ثبوت النقل يجب أن يحجم عن رد النصوص الشرعية وذلك أن الله أمر بالتسليم فلا يجوز أن يأخذ إنسان قبس من العلم ثم يقوم بمقارنته بعلم الله التام فهذا ينافي التسليم واليقين بعلم الله وسعته وحكمته في عباده وأنه أراد بهم خيرًا !.

التلازم بين العلم والعمل

ثمة تلازم بين العلم والعمل فلا يوفق الإنسان بلا علم وإذا عمل الإنسان بلا علم حتى في الماديات لا يوفق ، وكذلك في العبادة فلابد أن يعلم أن الله أمر بهذا الشيء سواء بالنص أو بالمخبر ويدخل في ذلك العلماء والمقلدون من العامة فذاك أخذ بالنص والمعنى وذلك أخذه بالتقليد بلا علم فإنه يكون تابع ولا يتحقق له من جهة الخيرية والثواب إلا ما وقر في قلبه من جهة الإتباع والتسليم لله ، لهذا التلازم بين العلم والعمل ظاهر لا يخفى على كل صاحب عقل لهذا أمر الله تعالى بالإخلاص له في كل عمل حتى لا يكون الإنسان متبع بجهالة أو يقلد صاحب بدعة أو ضلالة فإذا عرف الإنسان دليل المتبوع فإن التابع يكون على بصيرة وبينة ولو قلد في جزئيات إذا عرف صحة الأصل . لهذا ربما يصوم الإنسان وربما يعبد بالشرع أو بعمل الفطرة والطبع كصلة الأرحام وإكرام الضيف والإحسان إلى الجار فمثل هذه الأعمال من أعمال البر إن لم يخلصها الإنسان لله تعالى فلا يثاب عليها بذلك

فمجرد العمل لا يثاب عليه الإنسان إلا إذا استحضر إخلاص النية لله عز وجل ، فقد يسير الإنسان للمسجد ليقابل أحد فلا يثاب حتى ينوي الصلاة .

فالتلازم ثابت وأمر الله به في كتابه وأمر به النبي ﷺ ، والأمر بالعلم وفضله ومنزلته جاء فيه الكثير من الأدلة في فضل العلم ومنزلته وعلو قدره ومنزلة العلماء في الناس لهذا من جهة الأصل التلازم ظاهر بين العلم والعمل ومن أثر التلازم هو البركة أن الإنسان إذا علم أنه مخاطب أكثر من غيره فيعمل بالعلم الذي علمه قبل التبليغ فالعمل يسبق البلاغ لهذا أول المخاطبين بالعمل هو العالم ثم يقوم بالتبليغ ولهذا أكثر الناس علما وعملا وبلاغًا هم الأنبياء فاكتملوا من هذه الجهات ، ويجب على من تعلم أن يعمل ثم يبلغ وثمة شيء فربما تعارض هل العمل اللازم ، وهل هو أفضل من البلاغ على سبيل الإطلاق ؟ نقول لا .فما كان فرض على سبيل الأعيان فإن العمل به أفضل من البلاغ كالصلاة لأن العمل بها أوجب وأحق من التبليغ فيجب أن تصلي ولو فاتك شيء من البلاغ .

وأما غير الواجب العيني كالنوافل وأمور المستحبات فالذي يظهر والله أعلم أنه على مرتبتين :

١) إذا كان الأمر أمر كفائي أو نافلة فعمله أولى من تبليغه لواحد لأن عمله أولى من عمل فرد مثله .

٢) إذا كان البلاغ لجماعة من الناس كالتنفل في الحج والعمرة وتفقد أحوال الفقراء والمساكين وما كان من أمور المستحبات فيفعلها كثير وكذلك دلالة الناس للذكر من التسبيح والتهليل فالأفضل إذا ضاق وقت الإنسان عن التسبيح والتهليل والتكبير أن يبلّغ الناس ويعلمهم التسبيح والتهليل والتكبير لأن عمله منفردًا يكون الأجر فيه واحد وأما إذا أداه جماعة كان له أجر الجماعة لقوله ﷺ (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ)[٤] .يعنى أنه إذا دل عشرة على التسبيح أو صلاة نافلة كصلاة الضحى أو نحو ذلك فكان إما أن يفوت نصيبه وأما أن يوجه الناس نقول توجيهه للعشرة بأداء النافلة أفضل لأنه إذا أدى العشرة أفضل من تلك النافلة التي يؤديها هو في ذاته .

---

٤) رواه مسلم في (كتاب الزكاة) (باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار) حديث (١٠١٧) وانفرد به عن البخاري ، وأخرجه النسائي في (كتاب الزكاة) (باب التحريض على الصدقة) حديث (٢٥٥٤) ، وأخرجه ابن ماجه في (المقدمة) (باب من سن سنة حسنة أو سيئة) حديث (٢٠٣).

ولهذا العمل بالتكليف العيني أولى به الإنسان بنفسه ، وإذا تزاحم في النوافل وفروض الكفاية فيقدم البلاغ ولو كان فيه تفويت في عمله في ذاته ، لهذا نجد العلماء يقدمون تبليغ المتعدي للناس على عمله الفردي ولهذا جاء عن الإمام أحمد في لقائه بأبي زرعة (ماصليتُ غير الفرض ، استأثرتُ بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي)[٥] والمراد أنه يسامره في معرفة الأحاديث وصحتها وضعفها فينشر الخير في الناس فهم ما تركوا عبادة عينية ولكن تركوا شيء كقيام الليل وهذا عند تزاحم الأعمال . فهذه مراتب دقيقة ينبغي العلم بها حتى يؤديها الإنسان على الوجه الذي يريده الله تعالى ولا يقصر.

وبعض الناس يهتم بالبلاغ ويقصّر في ذاته وهذا مذموم لأمرين : إذا كان يخاطب بذلك عينًا ثم ترك عمله العيني وانشغل بتبليغ الناس فالغالب فيه أنه يبلغ الناس ليقال عالم ، والأمر الثاني عند إمكان الجمع وهذا دون ذلك مرتبة يعني أنه يمكن أن يعمل ويمكن أن يبلغ فبمقدار تيسر ذلك وزهد الإنسان فيه يكون شعبة من شعب النفاق ، لهذا عمل الإنسان يطرد النفاق القلبي عنه فينبغي عليه أن يعمل ليزكي العلم مما له أثره على نفسه وعلى الناس .

مراتب الناس في العلم والعمل

النبي ﷺ قد ذكر أنواع الناس في أبواب العلم وأبواب العمل وأظهرها قوله ﷺ (إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَسَقَوْا، وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)[٦] فهذا إشارة لأقسام الناس في العلم والعمل به وهي على ثلاثة مراتب الأولى : أقوام

٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٧: ٤٦٢).
٦) رواه البخاري، برقم: (٧٩)، واللفظ له، ومسلم، برقم: (٢٢٨٢).

كحال الارض التي شربت الماء ثم أنتجت وهؤلاء من علم وعمل وهي مرتبة الأنبياء وكذلك العلماء فلم يكن ثمة مانع في مرحلة الأخذ فأخذه بتمامه وكذلك من جهة إخراجه وهذا إشارة للبذور التي تكون في باطن الأرض وإخراجها للناس ، والصنف الثاني هم من علموا وبلغوا لكنهم قصروا في العمل ، والمرتبة الثالثة المذمومة وهي من علم ولم يعمل ولم يبلغ فلم يحفظ الماء ولم يخرج نبات .

و أعلى هذه الأصناف مرتبة الحمد ثم المتوسطة ثم المذمومة فمراتب الناس من جهة العمل على هذا النوع والواجب أن يحذر الإنسان من جهة التفاوت بين العلم والعمل وهذا يتعلق في أبواب كل علم من التربية والاجتماع والسياسة فإذا كان عالم بالسياسة والاقتصاد والبيع والشراء والأمانة وهو عالم بها لكنه أكثر الناس خيانة فعلمه لن ينفع فلا يؤتمن بتبليغ غيره .

لهذا عمل الإنسان هو من يزكي علمه ، فإذا كان الإنسان عالم في أبواب التربية والأسرة والاجتماع ولديه عمل وحذق في هذا الباب فهذا هو المقياس في حياته مع أقرب الناس إليه هل يطبق ذلك ويعمل به فهو عالم عامل في فنه يُعرف صدقه في ذاته .

لهذا العمل الذي يكون لازم للإنسان هو الذي يزكي العلم الذي لديه .

وإذا عُرفت الأصناف عرفت مرتبة الزكاء والنقاء وعرفت مرتبة الذم والقدح التي ذمها الله عز وجل وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه .وهي التي أخبر بها النبي ﷺ الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه ، والأسوء منزلة هو الذي يأخذ العلم ويعرفه ثم يطلب به غير الله أصلًا وفرعا كما جاء في الحديث **(أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة ، عالمٌ ...قال : تعلمتُ وعلمت ، قال: كذبت ، بل تعلمت ليقال عالم وقد قيل)**[7] فأخذه للعلم ابتداء لم يكن لله وإنما أراد به غير الله تعالى فخان الامانة ، وخير منه الذي أخذ العلم ولم يبلغه لأن هذا خان الأمانة في عمله وصدّر للناس الحق ولهذا جاء في الحديث **(فتجتمع أهل النار عليه فيقولون يا فلان ما شأنك أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن**

٧) رواه الترمذي ٢٣٨٣ .

المنكر ؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن الشر وآتيه)[٨] فهو يصدر علم للناس في ظاهره حق وهو في ذاته يعاكس العلم الذي يعلمه فربما كان الإنسان جسرًا للناس للجنة ثم يقذف به في النار ولهذا لابد للعالِم من العمل والحذر وأن يعلم أن أول وجوه التكليف عليه أن يزكي علمه بأداه في نفسه ثم يتجاوزه لغيره شيء فشيء . ويكثر الضلال عند المقصرين فإذا وجدت العالِم يضل الناس فاعلم أنه أول المقصرين في ذاته لانه ما أقام العدل في نفسه من جهة العلم لأن العلم ينادي في العمل وكلما زاد العلم زاد العمل وهذا هو الأصل .

وثمة مقياس للعلم وهو خشية الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر : ٢٨) وجاء في الأثر: إنما العلم الخشية ، فحينما تزداد علم بالشيء فإنك تزداد معرفة به وخشية له فإذا علمت الله تخشاه فإذا علمت ولم تخشى الله فاعلم أن علمك ليس لله وإنما لغير الله فتجردت من العمل مع كثرة علمك ، لهذا نقول كلما ازداد الإنسان علمًا وعملا كان فيه شبه بالأنبياء وكلما زاد علمه وقل عمله كان أقرب إلى إبليس لان إبليس أكثر الناس علما فعلمه يفوق علماء البشر غير الأنبياء فيدرك جميع الرسالات فأدرك وبصر الناسخ والمنسوخ وعرف الضالين وانحرافهم والناسخ والمنسوخ والحق والباطل ولكنه ضل عن البصيرة وزاغ وانعدم عمله ، لهذا إذا كثر العلم وكثر العمل كان أقرب إلى هدي الأنبياء ، فإذا ازداد العلم ولم يزداد العمل فليعلم وفيه شبه من إبليس فينبغي النظر في عمله هل ازداد عمله فليعلم أنه على خير وإذا ازداد علمه عن عمله فليعلم أنه على خطر عظيم فيجب أن يتوقف في العلم ويزيد من عمله حتى يوازي العلم ثم ينطلق ليزيد فيهما جميعا.

[٨]) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق برقم ٣٢٦٧ ومسلم في الزهد والرقائق برقم ٢٩٨٩ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

الرياء وخطره

الرياء خطر عظيم على عمل الإنسان ومدخل من مداخل الشيطان على نية الإنسان وهو نوع من إخلاء الشيء من حقيقته ولو كان حسنا في الظاهر كالسوسة التي تنخر الثمرة فتخليها وهي في الظاهر حسنة ، فإذا كان عمل الإنسان لغير الله فدخلت نية في قلبه لغير الله كطلب الوجاهة والسيادة فذاك الشرك الخفي وشرك السرائر كما جاء تسميته عن النبي ﷺ وهو أمر خطير لأنه يجعل العمل أجوف لا قيمة له وربما يصل به للشرك الأكبر حتى يخرج من الملة ، يقول الله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾(البينة : ٥) وحذر النبي ﷺ من الشرك الخفي في أحاديث كثيرة منها ما جاء (عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ فَقُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُصَلِّيَ فَيَزِيدَ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رجلٍ)[٩] فهذا شرك السرائر كما جاء في حديث محمود بن لبيد في المسند وغيره .

والشرك الخفي من أخطر الأشياء التي تدخل على عمل الإنسان فتحبطه وتضعف رسالته والبركة لضعف العبودية لأن حاله أجوف فالعمود ربما عظيم لكنه منخور قد نخرته الأرضة كحال المنافقين ، فالمنافقون يحسنون من ظواهرهم ربما سبحوا وهللوا لكن بواطنهم لغير الله فبين الله من صفاتهم اهتمامهم بالمظاهر والعمل الظاهر كما قال تعالى ﴿وَإِذا رَأَيتَهُم تُعجِبُكَ أَجسامُهُم وَإِن يَقولوا تَسمَع لِقَولِهِم كَأَنَّهُم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ (المنافقون : ٤) مسندة : أي لا تقوم بنفسها تقوم بغيرها فإذا ذهب غيرها تسقط إذا ذهب الرائي ما صلى وإذا ذهب السامع ما تكلم وغير ذلك ولهذا يجب على الإنسان أن يختبر خلواته لله عز وجل .

٩) رَوَاهُ ابْن مَاجَه (٥٣٣٣) .

وقد جاء عن أبي موسى الأشعري وجاء عند الطبري وغيره من حديث عمران (قال رجل لحذيفة بن اليمان: هل أنا من المنافقين؟ قال حذيفة: هل تصلي إذا خلوت، وتستغفر إذا أذنبت؟ قال نعم قال حذيفة: اذهب فما جعلك الله منافقا)[10] وقد جاء عن أبي موسى الأشعري فسأله عن النفاق فقال أتصلي إذا لم يكن أحد إلا الله قال نعم قال فإن المنافقون لا يصلون إذا كان أحد إلا الله ..مثل ذلك . فليعلم الإنسان أنه إذا أدى الصلاة بخشوع تام وحده خاليا كما كان أمام الناس فليعلم أنه صادق وإذا غاب فرّط في الصدقه وفي صلاحه فهذه الزيادة والنقص تكو ن موضع النفاق في ذلك يختبر نفاق الإنسان ولهذا جاء في الحديث كما جاء عند ابن مبارك في الزهد (مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبِيءٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ)[11] يعني لا يعلم بها أحد تصلي سرًا تسبح سرًا تتصدق سرًا حتى ولو على الأقربين من خاصتك، فهذا تزكية للإنسان فإذا خشي الإنسان من الرياء والسمعة فاسأل نفسك هل لديك عبادة سر فيكثر منها ، وأما من كان لديه ضعف في عبادة السر فهو في الغالب ممن يُخاف عليهم من الرياء فعليه بكثرة عبادة السر حتى يوفق ويعان .

العجب بالعلم أو العمل

يخلص الإنسان نيته من العجب الذي يقع في نفسه بتزكية عمل السر فيكثر من جنس العمل الذي أعجب به علانية ، فإذا أعجب بصدقته فليكن له صدقة سرية وإذا أعجب بصلاته فخشيت من انصراف النية لبصر الناس وسمعهم فلتكن له نوافل وصلاة سرية ، وإذا كان العجب في العلم أو القراءة والاطلاع فليكن لك قراءة ونظر وبحث سري وهكذا ، فكل شيء تخشى منه ظاهر فافعله سر بما لا يعلم به إلا الله تعالى ، ولكن بعض الناس يحرص على عمل السر ثم لا يزال به الشيطان يخبر بعمله ولو بعد سنة أو سنتين أو بعد عشر سنين وهذا أخرجه للعلانية .

---

١٠) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٦٦٦١٦) .

١١) أخرجه الخطيب في "التاريخ" (١١ / ٢٦٣) والضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١ / ٢٩٦) والقضاعي في "مسند الشهاب" (ق ٣٧ / ١) .

فينبغي للإنسان أن يكتم عمل السر كما يكتم الذنوب والزلات وذلك حتى يجد أن عمله لا يعلم به إلا الله فيكون في صحيفته فيسر بها عند الله فإنه لا يسرها إلا لأنه لا يريد بها إلا وجه الله وبهذا يزداد إخلاص وتوفيق وتسديد ويزول بذلك عجبه وينطفأ ما في قلبه من تشوف لأسماع الناس وأبصارهم لأن لديه من عمل السر من جنس العمل الكثير.

تصوير الأعمال

الشره الذي يقع في الزمن المتأخر عند الناس بإبداء أعمالهم سواء بالمكتوب أو المرئي هذه من الفتن المعاصرة التي تأخذ من أعمال الإنسان وبركته فمن أعظم ما يأخذ من نيات العاملين في الزمن المتأخر هو التصوير ، فتجد كثير من الناس يوغل في التصوير لأشياء وجزئيات حتى يصوروا للرائي أنهم على سبيل الدوام على هذا الحال ، فربما يفتح المصور الكتاب ليصور صفحة ثم يغلقه ليبين للناس أنه يقرأ الكتاب على سبيل الدوام . وهذا لاشك من القوادح العظيمة في النية فليكثر من فتح الكتاب إذا قلنا بأنه يسوغ له فعل هذا الفعل عند من يقول بجواز مثل هذا فمثل هذه الأفعال إذا أراد أن يظهرها لابد أن يكون مكثر من فعلها فيريد بها جذب الناس ليعملوا بعمله وإن كنت لا أحمد هذا لكنه ربما يكون نوع من العدل بين الظاهر والباطن ، وكذلك من جهة الصدقة والنفقة ومن جهة عمله في ذاته فربما يصلي ويصور له أنه قوام صوام بينما هو قليل النوافل فهذا مما يقدح في عمل الإنسان ، وكذلك تصوير ذهاب الإنسان لأقرابه لأرحامه وللمرضى فيتم تصويره وربما لم يفعلها إلا مرة واحدة في حياته فينشغل قلبه بعلم الناس بفعله فهذه من قوادح النية .

ومنها أيضًا العجب الذي يلحق العمل حتى يبلغ بالإنسان إزدراء واحتقار أعمال الآخرين فيقوم بالنظر لفلان هذا لا يعمل ومقصر وربما هو يعمل لكنه مُسِر ، فهذا من القوادح وربما يبطل العمل فينبغي إحاطة العمل بالسر .

وأما دعوة الناس والتأثير عليهم بنشر الخير ووسائل الإعلام نقول : تكون بمقدار فلا تقول قول واحد أو عمل واحد فتعلنه فكلما زار مريض نشره !. نقول إذا زرت عشرة مرضى صور واحد في حال قوتك إذا كنت لا تتشوف لكلام الناس وأما إذا كنت تخاف على النية فلا يصور ولو واحد من ألف فالإنسان عليه أن ينجي نفسه فلا تهلك أنت لتنقذ الناس ثم يرمى بك في النار.

وهذا يرجع لذات الإنسان فلا يُتهم أحد فهذه الأمور لله فالبواطن لله فربما إنسان يرائي بعمل واحد يعرضه ، وربما إنسان لا يرائي بعرض عشرات الأعمال ولكن هذا حماية وتحصين ، فهذا يرجع للبواطن والنيات وأمرها إلى الله تعالى .

وإعلان العمل له عدة مقاصد وأشهرها مقصدان :

١) لمدح الإنسان والبروز وهذا من القوادح ولا يمكن أن يرفعه الله تعالى بمثل هذا.

٢) لدفع الناس إليه أن يأتوا بمثل عمله فهو باب من أبواب الخير.

فالنوع الأول مهما أكثر من عمله ليُمدح لا يمكن أن يرفعه الله وهو شرك السرائر ، والنوع الثاني دفعا للناس في حال ضعف الإقبال على نوع هذا العمل فإذا قصد ذلك فهذا باب من أبواب الخير وقد جاء في حديث الرجل الذي تصدق بصرة مال ثم تداعى الناس من وراءه كما جاء في الحديث (جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ قَالَ ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ)[١٢] فربما يعلن عن صدقة دينار أو درهم فيتدافع عليه الناس ، أما إذا أراد أن يُحمد في ذاته مجردا فهذا من المذموم والمنهي عنه شرع وليس له من عمله إلا حمد الناس .

---

١٢) رواه مسلم في (كتاب الزكاة) (باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار) حديث (١٠١٧) وانفرد به عن البخاري ، وأخرجه النسائي في (كتاب الزكاة) (باب التحريض على الصدقة) حديث (٢٥٥٤) ، وأخرجه ابن ماجه في (المقدمة) (باب من سن سنة حسنة أو سيئة) حديث (٢٠٣).

والعمل الصالح على نوعين النوع الأول : هي العبادات المحضة والعبادات المحضة كالصلاة والصيام إذا دخلها نية طلب المدح أحبط العمل ويكون من دواخل الشرك على الإنسان العظيم وربما يخرجه من الملة وربما يحبط العمل بذاته .

وأما الفضائل فليست عبادات محضة إذا دخلها طلب المدح يحبط الأجر ولا يتحقق عليه وزر مثل هذا من يبر والديه ليثنى عليه أو حمد الناس فهذا لا يأخذ أجر بر الوالدين لكنه لا يعاقب لأن ذات بر الوالدين ليست من العبادات المحضة ومثل إكرام الضيف والإحسان للجار وإماطة الأذى عن الطريق وزيارة المريض وغيرها إذا رائى الإنسان فيها حبط أجره بنيته ولا يلحقه وزر بخلاف العبادات المحضة كالصلاة والصيام والزكاة والحج يحبط عمله ويلحقه وزر بمقدار القادح على قلبه.

التفاضل بين العلوم

ثمة شهوة للعلم كما ثمة شهوة للعمل فالشهوة للعلم أن يقوم به رغبة ذاتية لا لتحقيق مصلحة الناس والمرتبة العليا للعلم هي التي يسقط التكليف على نفسه فأعلى العلوم الواجبة هو ما يتحقق به إسقاط أعظم التكاليف وهو علم توحيد الله ونفي الشرك وهو أعظم العلوم على الإطلاق وأعظم من العلوم المادية ، ثم يأتي التفاضل في نفع الناس في دينهم ودنياهم فبمقدار النفع المتعدي للناس تكون عظمة ذلك العلم سواء كان شرعي أو مادي .

وهناك من الناس من يطلب العلم بالتشهي فيجد ثمة دعاية لعلم أو فن من الفنون والناس في تقصير فيما هو أعظم ، وربما ثمة إقبال الناس على علم من العلوم وهو ليس معيار وإنما المعيار حاجة الناس وموضع الخلل فمنهم من يريد الدخل المادي في الصناعة وغيرها بينما لديهم خلل في التوحيد مثلا . ولهذا في زمن الأمراض المزمنة تجد من يتخصص في التجميل وغيره لاشك أنه طلب العلم للشهوة والدخل المادي والمرض المزمن لا يتعلق بها فلا يؤتى منه أجر .

كذلك في علم الشريعة يجب أن يعلم الإنسان أن أزكى العلوم وأعظمها ما يسقط به الشرك وهو التوحيد ثم هناك من يطلب العلم بالتشهي دون حاجة الناس ، لهذا تجد البعض يوغل في علوم الآلة واللغة والحديث ونحوه وهو في بلد به شرك فهذا طلب العلم للتشهي .

وربما أدخل الله إنسان الجنة بعلم مادي طلبه لنفع الناس به وتمكنت وقويت شوكتهم وربما أدخل غيره النار بطلب علم الشرعي رياء .

أثر الجهل

إذا وجد الجهل في الأمة يقع الخلل العظيم فلا يميز الناس بين الحق والباطل فتنزل مرتبة العلم والنبي ﷺ قد ربط بين فتن أخر الزمان ونقص العلم ، قال رسول الله ﷺ (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ)[١٣] فربط كثرة الفتن بنقص العلم والجهل وهذا التلازم دليل على تقصير العلماء في طلب العلماء ، ومن أعظم قصور الناس في طلب العلم هو ظهور الفتن والفتن متنوعة ، والجهالة تدخل في أمور الناس فكلما جهل الناس بشيء دخل فيهم الفساد حتى في أمور الناس فما من شر وفتنة وشقاق إلا بجهل لهذا نقول يجب على العلماء نشر العلم وطلبه حتى يميزوا الحق من الباطل .

١٣) رواه البخاري : كتاب الاستسقاء (١٠٣٦) .

خصال العالم الصادق

أعظم ما يعرف به العالم الصادق أمور ثلاث :

١) يُعرف بمقدار علمه فكلما كثر علمه كثرت إصابته للحق .

٢) يُعرف بمقدار عمله فكلما كان العالم أكثر عملا فكان أقرب لصدقه فإن العلم إذا لم ينفع صاحبه من باب أولى لا ينفع غيره .

٣) التجرد من طلب المال وطلب المدح وغيره فإن العالم إن لم يتجرد صيّر علمه لهواه أو كتم الفاضل ونشر المفضول وهذا يكثر في الناس ويقول أنا ادعوا للحق ولا أدعوا لباطل ولكنه غيب ما هو أولى.

فهذه شروط العالم الصادق : العلم والعمل والتجرد بأن يكون صادق في طلبه للعلم لذاته لا للدنيا والجاه فكلما أكثر التجرد وفقه الله وسدده وأرشده وهذا العالم منه يؤخذ العلم ومنه يُطلب.

وأما العالم غير العامل أو العامل غير العالم أو غير المتجرد أو المتجرد الجاهل فهؤلاء تأتيهم رياح الهوى فتصرفهم يمنة ويسرى ويضلون الأمة كما ضلت أحبار ورهبان بني إسرائيل أتباعهم بكتمانهم للحق وقولهم الباطل .

وأثر عدم عمل الإنسان بعلمه ربما ينبت النفاق في قلبه وذلك أن الله تعالى ما من نبي إلا أمره بالعمل قبل أن يأمره بالتبليغ فها هو نبي الله عيسى عليه السلام يقول الله تعالى على لسانه ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم : ٣١) قبل ابتداء الدعوة فأمره بالعمل قبل التوسع في العلم .

وكذلك إسماعيل عليه السلام في قول الله تعالى﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ (مريم : ٥٥) وكذلك موسى عليه السلام ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾(طه : ١٤) أمره بالعبادة قبل نشر العلم .

وكذلك نبينا محمد ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر : ١-٣) أمره وخاطبه بالعمل قبل الدعوة وهذا قبل أن يتوسعوا في أبواب العلم لأن العمل ترسيخ وتقوية وتطهير للقلب من كل الشوائب وفيه تطهير للقلب فإذا كان هذا في أنبياء الله تعالى وهم أزكى النفوس وأنقاها وأطهرها ومعصومون فهو في غيرهم من باب أولى . فالعمل يزكي العلم ويطهر نيّة الإنسان . فالعمل شبيه بالمنخل الذي ينخل العلم فيخرجه للناس نقيًا صائبًا .

ولا يستطيع الإنسان ضبط أيهما أفضل قلة علم مع كثرة عمل أم كثرة علم مع كثرة عمل !.
فربما يكون الإنسان في بلد فيها جهلٌ كثير فيكون العلم القليل مع البلاغ الكثير أفضل ، وأصل الأصول هو التوحيد فإذا عرف التوحيد ثم انشغل بالدعوة ليل ونهار وقصر في النوافل فهذا في بلدان الجهل يختلف عن بلدان العلم فيختلف من موضع لموضع ، وعمومًا فإن كثرة العلم مع قلة العمل خطر على الإنسان ونذير بالرياء والنفاق ، وكثرة العمل مع قلة العلم خطر أيضًا على الإنسان فربما تخرجه من التعبد الصادق إلى الرهبانية أو تعطيل لحقوق الله سبحانه وتعالى .

۞